انت وحدك

تستطيع أن تقوم بعمل عظيم

بقلم الأستاذ عبد الحميد عبد الغنى

كانت الطبقات الفقيرة فى مدن أوربا وأمريكا تتكدس وتتراكم فى مساكن ضيقة الأرجاء محتبسة الهواء تغمرها الظلمة فى رابعة النهار. وكان الناس جميعا يرون أن هذه المحابس تصيب أجسام ساكنيها بالمرض والهزال، وتنال أخلاقهم بالسوء والأذى، فكانوا يزمون شفاههم و يقلبون أكفهم ألما وأسى، ثم يسأل بعضهم بعضا: وماذا نستطيع أن نفعل؟

ولكن إحدى نساء لندن الفقيرات، هى أوكتافيا هيل، رأت أنه لايكفى أن تلق هذا السؤال، بل عليها أن تجد له الجواب. وكان جوابها أن اقترضت مالا استأجرت به ثلاثة منازل صالحة، ثم أجرتها لجماعة من فقيرات النساء، وأخذت تعلمهن خياطة الملابس، ليكسبن من هذه المهنة ما يمكنهن من دفع إيجار مساكنهن...

فالمرأة الفقيرة التى كانت تنزوى مع ثلاث أو أربع فقيرات أخريات، فى غرفة ليست فيها كوة واحدة ينفذ منها ضوء النهار أو ينصرف منها الهواء المسمم، ولا تكاد تجد مع هذا من القوت ما يحفظ عليها رمق الحياة، بله أن ينمى فيها الصحة والعافية والنشاط، وتتعرض بسبب هذا كله لألوان شتى من الرذائل والآثام — هذه المرأة صارت تسكن بمفردها فى غرفة نظيفة أنيقة، تلائم الصحة وتبث النشاط، وصارت تمارس عملا منتجا يمكنها من أن تجد مع المسكن الصالح غذاء وافيا ولباسا وافيا، وشيئا من متاع الحياة يهون عليها مشاقها وأعباءها، ويصرفها عن كثير من الجوانب المظلمة المرذولة.

وبينما ظل أهل المدن الأخرى يتساءلون: "وماذا نستطيع أن نفعل لهؤلاء الفقراء الذين يتراكمون، كأكوام الفحم، فى محابس تعيث فيها جراثيم المرض وجراثيم الرذيلة"؟ كانت أوكتافيا هيل قد أعدت عشرات المنازل الجميلة وآوت فيها مئات الأسر الفقيرة، وأخذت تقيم فى كل بيت ملعبا للأطفال يلهون فيه ويمرحون، بينما أمهاتهم مكبات على حياكة الملابس التى توفر لهن ولأولادهن أسبابا من الحياة الطيبة.

وترامت أنباء منازل أوكتافيا هيل إلى سائر الأنحاء، وسمع أصحاب البيوت أن مساكنها لاتخلو لشدة إقبال الناس عليها، فراحو يهدمون أبنيتهم الخربة المتداعية ويقيمون مكانها بيوتا حديثة فسيحة، يغمرها الضوء ويتجدد فيها الهواء، وتبث فى أهلها شعور الراحة والبهجة والاستقرار.

وكان هذا العمل هو الخطوة الأولى فى سبيل إنشاء مساكن نموذجية للطبقات الفقيرة، فقد رأت الحكومات المتمدنة أن البيت الصحى النظيف يبث فى أهله الجد والنشاط ويبعث فيهم الرضى والطمأنينة، فأخذت تهدم ما فى المدن من الأحياء الفقيرة التى كان يقبع فيها الفقراء معرضين للأمراض والأوبئة تفتك بأجسامهم، مستبدفين للرذائل والخبائث تعصف بأخلاقهم.

وهكذا شقت هذه المرأة الفقيرة بمفردها، منذ ثلاثة أرباع قرن، طريقا تتسابق فيه اليوم الحكومات الحديثة التى ترى أن "البيت" أحد المرافق العامة التى تؤثر تأثيرا مباشرا فى قوة الدولة، فتوليه شطرا كبيرا من ميزانيتها ومن جهودها.

***

نشأت فلورنس نايتنجيل فى أسرة ثرية رفيعة، ودرجت فى حياة حافلة بالرفه والنعمى، فكان نجمها يتألق فى الحفلات والمنتديات العليا، وظهرت فى حفلات القصر الملكى، وهذا أقصى ما تطمع إليه فتيات الطبقة الرفيعة فى انجلترا.

ولكنها كانت تشعر فى قرارة قلبها أن عليها عملا أفضل من هذا وأسمى، عملا أهم من الوقوف أمام المرايا، والتجول بين المتاجر، واستقبال الضيوف وزيارة الأصدقاء، والتفنن فى الظهور فى الحفلات الساهرات الراقصات — فكانت تقول وهى فى سن باكرة: "إن ذهنى يطالبنى بأن أقنعه وأرضيه، ولن أقنع طبيعتى الطامحة بالزواج ولا بالصداقة، ربى! ماذا يرضينى، وما هو مصيرى؟".

وبينما كانت كل فتاة مثلها تفكر ليلها ونهارها فى علاقات الصداقة والهوى، فتسرف فى زيها وزينتها ولو أرهقت أبويها عسرا، وتتأنق فى حديثها حتى يخرج ألفاظا مقطعة متراخية لا تحسن نطقها، وتستقبل كل يوم صفا طويلا من الضيوف، وتمر كل يوم بصف طويل من المتاجر، ساعية بهذا كله إلى "اقتناص" زوج أو صديق — بينما كان هذا شأن كل فتاة كانت فلورنس تتوسل الى أبيها وأمها أن يسمحا لها بدراسة فن التمريض، لتعمل ممرضة فى إحدى المستشفيات.

كان هذا حدثا فى المجتمع الانجليزى! فتاة من أرق الأسر حسبا وأوفرها مالا، وهى على حظ عظيم من الجمال والأناقة والذكاء، تريد أن تعمل ما لا يعمله إلا بنات الطبقة الدنيا سعيا الى الرزق والكفاف؟

ولكن الفتاة أصرت على أن تهجر حياة الرفه والعبث، وأن تؤدى عملا يرضى عقلها ويريح قلبها. فلما قامت حرب القرم واشتبكت فيها بريطانيا، لحقت بجيش بلادها تمرض جرحاه. فأخذ أصدقاؤها وصديقاتها فى حفلاتهم الراقصة يتساءلون: وماذا تستطيع فتاة واحدة أن تفعل؟ ... ولكن فلورنس أجابتهم عن تساؤلهم حين هبطت نسبة الوفيات بين الجرحى من ٤٢ ٪ الى ٢ ٪.

كانت وسائل التمريض عقيمة جدا ، فكانت الجراح تحشى بالقطن الملوث ريثما يأتى الجراح بعد ساعات طويلة ، وكان الجرحى والمرضى يكدسون معا فى أماكن قلما ينفذ اليها الضوء أو الحرارة ، وكانت أوبئة الكوليرا والدوسنطاريا تعصف بالجنود عصفا ذريعا .

فوضعت فلورنس نايتنجيل نظاما جديدا للتمريض على أسس علمية صحيحة ، كما وجد فيها الجرحى والمرضى مثلا رفيعا فى روحها وخلقها ، حتى أطلقوا عليها لقبا من ألقاب القديسات هو " السيدة الطاهرة " وكأنما كانت هناك قوة روحية عظيمة تشع من وجهها وتفيض من حديثها ، فلا تكاد تدخل ردهة المرضى حتى يشعروا كأن أعباء المرض خفت عنهم كثيرا ، فكانوا ينتظرون موعد مرورها بصبر نافد وشوق عظيم ، فلا تكاد تهل عليهم حتى تتهلل وجوههم بشرا ورضا .

وعادت بعد الحرب إلى انجلترا حيث استقبلت استقبالا شعبيا مجيدا ، ورفعها الكتاب إلى مصاف البطلات الخالدات فى صفحات التاريخ . فما من جندى جرح منذ حرب القرم حتى الآن إلا وهو مدين لهذه الفتاة التى وضعت أساس التمريض الحديث ، والتى أدت بمفردها ما كان الناس يعتقدون أن لا سبيل إلى أدائه إلا أن تتضافر الحكومات ، وتنهض الجماعات ، وتنفق أكداس الأموال !

*
* *

فى تاريخ السجون مثالان على ما يستطيع الفرد الواحد أن يفعل إذا هو أخلص النية وصدق الجهاد .

كان أرنست كولتر كاتبا فى إحدى محاكم الأحداث ، فرأى الصبى يدخل السجن غرا ساذجا ويخرج منه مشبعا بفكرة الجريمة حاذقا فنون الاجرام . ورأى أن العامل الأتم لا يهذبه ولا يردعه إلا صديق يرشده ويهديه . فاقترح على جماعة من أصدقائه أن يتخذ كل منهم صديقا من أولئك الصبيان الذين يزلون فى بدء حياتهم . واستجاب أصدقاؤه لهذا الرأى ، فلم يلبث أن رأى الناس هؤلاء الصبية الذين كان مقضيا عليهم أن يقضوا أعمارهم فى أوكار الجريمة والرذيلة ، وقد اتخذوا طريقا سويا يحيون فيه حياة شريفة نافعة ، يعود خيرها عليهم وعلى المجتمع معا .

وقامت على أثر هذا حركة " الأخ الأكبر " التى شملت برعايتها آلافا من الصبيان الذين لم يلبثوا أن اقلعوا عن جرائمهم وصاروا أعضاء عاملين فى بيئاتهم ، وقد انتشرت هذه الحركة بعد ذلك فى كثير من الشعوب ، وأصلحت كثيرا من جوانب الحياة ، مع أن الذى فكر فيها وبدأ بها لم يكن عظيما ذا جاه ، ولا محسنا ذا مال ، بل كان كاتبا بسيطا ، منفردا ، ولكن

وكانت السجون فى القرن الثامن عشر كهوفا وسراديب يسام فيها السجناء سوء العذاب ويقاسون هول الأمراض ، فهال أمرها رجلا انجليزيا هو جون هوارد ، فقام يندد بما يقارف فيها من القسوة والغلظة ، ويدعو الى شىء من الرفق والرأفة ، فلم تنقض سنة واحدة على دعوته حتى عملت الحكومة على اصلاح سجونها لأول مرة . ثم خلفته فى حركته السيدة الیزابث فرای التى دوى صوتها فى أرجاء الأرض جميعا ، داعية الى أخذ المجرمين بالشفقة والحسنى، وبهذا قامت إحدى الحركات الانسانية النبيلة على يد سيدة واحدة، كانت تعنى — وهى ما تزال فى سن العشرين — برعاية الفقراء والمساكين من جيرتها .

*
* *

وقصة " جيش الخلاص " مثل من أعظم الأمثلة التى تساق دليلا على أن رجلا واحدا يستطيع أن يؤدى من الخير ما يعجز عنه مئات وآلاف من الرجال .

هذا الجيش الذى يتألف الآن من سنة وعشرين ألف ضابط ، تنتشر كتائبهم فى ثمانية وخمسين قطرا .

هذا الجيش الذى يصدر مائة وثلاثين صحيفة ، ويلقى محاضراته ومواعظه بأربع وسبعين لغة ، ويعقد كل أسبوع أكثر من أربعين ألف اجتماع فى جميع أنحاء العالم .

هذا الجيش الذى انشأ مئات البيوت والملاجئ ، أعدها لايواء الأطفال المشردين ، والعجزة والمسنين ، ولرعاية الأمهات الفقيرات، ولإسكان الذين لفظتهم السجون مشردين منبوذين .

هذا الجيش الذى يملك ويدير عددا كبيرا من المصانع ، والمزارع ، والبنوك ، وهيآت التأمين، وهيآت المهاجرة، والمستشفيات، والمصحات، ومنشآت الخدمة الاجتماعية المختلفة.

من الذى أنشاه ؟ هل ألفته حكومة ذات سطوة وسلطان ؟ هل ألفه مليونير تبرع بملايينه لأعمال البر والاحسان ؟ هل ألفته جمعية ذات أموال وأعضاء وفروع كلا ! وانما ألفه قسيس بسيط اسمه "بوث" لايتميز عن أى واحد من آلاف القسس الذى تعج بهم كنائس انجلترا ، إلا بروح مضطرم بالبر والخير والاحسان ، مكنه من أن يكتب فى التاريخ صفحة قلما كتب مثلها من أوتوا الحكم والجاه والمال .

نظر "بوث" فرأى الآثام والرذائل تعصف بالناس عصفا ذريعا ، فأبى على نفسه أن يمضى حياته قسيسا يؤدى الصلاة ويلقى المواعظ أيام الآحاد والأعياد ، مستمتعا بمايستمتع به أمثاله من رغد العيش وهدوء البال ، وأصر على أن يكرس مابقى من حياته فى كفاح الجريمة

أعوانه ومريديه، وبثهم فى مدن انجلترا وقراها ، يجوبون أحياءها الفقيرة، ويختلطون بعمالها وفلاحيها ، ليحضوهم على الحياة الفاضلة بما يلقون عليهم من الخطب والعظات، وما يذيعونه بينهم من الكتب والصحف ، وما يقومون به من زيارات خاصة للبيوت والأسرات ، ليحضوا الناس على ترك الخمر والميسر ، وأخذ أنفسهم بالعفة والطهارة ، وتدعيم الحياة الزوجية على أسس من العرف والحسنى .

وكان "بوث" وأعوانه يتعرضون فى سبيل هذا لكثير من الضرر والأذى، فكثيرا ما كان يعتدى عليهم السكيرون والمقامرون ، ومن تؤجرهم مصانع الخمر وأندية الميسر لايذائهم ومقاومتهم . بل إن الحكومة كانت تجنى عليهم وتنالهم بشديد العقاب ، وقالت إحدى المحاكم فى قضية لهم عرضت عليها : « إن السكر لايبيح لأحد أن يتعرض للسكير ، كما أن حمل الساعة فى جيب الصديرى لايبيح للص اختطافها » وهو منطق فى غاية الغرابة ، لأن السكر رذيلة وليس كذلك الأمر فى حمل الساعة ، ولأن التعرض للسكارى بالنصح والارشاد ليس كالتعرض للناس بالسلب والسرقة ؟ وقد بلغ من أذى الناس لجنود جيش الخلاص أن أنشأ بوث مستشفى خاصا يعالجون فيه مما يصيبهم به الناس من الجراح والكسور ؟

ولكن الجيش ثبت وصمد ، وكثر جنوده ومؤيدوه ، فاتسع نطاق أعماله ، وأخذ ينشئ الملاجئ للأطفال والمسنين، ويقيم المستشفيات للفقراء والمعوزين، ويعد بيوتا للأمومة تجد فيها الوالدات الرعاية والتمريض، ويبنى مصانع يعمل فيها العمال المتعطلون ، ويستأجر مزارع للمتعطلين الذين لايحسنون الصناعة . وكذلك أنشأ بيوتا لمن تلفظهم السجون، فيعودون الى حياة الجريمة يلتمسون منها الرزق ، ريثما يزج بهم فى السجن مرة أخرى . وأخذ يحض الناس على الاقتصاد فى الطعام يوما فى الأسبوع ، ليتبرعوا بما اقتصدوه للفقراء الذين لايجدون الكفاف من القوت ، وغير هذا من مئات الخدمات الاجتماعية الجليلة التى عمت أقطار العالم جميعا ، وأفادت منها جميع الشعوب والطوائف خيرا جزيلا ، وكل ذلك بفضل رجل واحد لم تقعده قلة جاهه وماله عن أن يكرس نفسه لخير الانسانية عشرات السنين ، فأدى من ضروب الاصلاح الاجتماعى ما قد تعجز عنه حكومات بأسرها .

* * *

فى سنة ١٨٤٤ تأسست فى انجلترا أول جمعية تعاونية ، هى جمعية " روتشيل " .

وفى سنة ١٩٣٧ بلغ عدد الجمعيات التى نمت من هذه الجمعية الأولى ١٠٩٤ جمعية .

وكان أعضاء الجمعية الأولى ثمانية وعشرين عاملا ، فصار أعضاء الجمعيات الحالية أكثر من ثمانية ملايين .

وكان رأس مال الجمعية الأولى ثمانية وعشرين جنيها ، دفع كل عضو فيها جنيها منها ، فصار رأس مال الجمعيات الحالية مائة وخمسين مليونا من الجنيهات .

كيف تمت هذه "المعجزة" الاجتماعية الكبرى ؟

لم يكن الفضل فى هـذا السبيل للحكومة الانجليزية ، ولا لأحد من أصحاب الملايين ، ولا لجمعية من هذه الجمعيات التى تملأ الصحف والأندية بألوان الدعاية الصارخة — وإنما الفضل الأول لثمانية وعشرين رجلا من صغار العمال فى أحد مصانع النسيج بقرية "روتشيل" تكاتفوا معا — تحدوهم روح الاخلاص — على إنشاء جمعية تعاونية بسيطة ساهم كل رجل منهم فى رأس مالها بجنيه واحد، وأنشأت دكانا صغيرا للبقالة يمد أعضاء الجمعيات بحاجاتهم القليلة ؛ فلم يكد تمر سنوات حتى صار لهذه الجمعية وفروعها بدلا من هـــذا الدكان مصانع ضخمة ؛ وفروع فسيحة ، وأندية حافلة ، وأثر خطير فى حياة انجلترا الاجتماعية الاقتصادية .

واذا عرفنا أن فى العالم الآن زهاء سبعمائة ألف جمعية تعاونية ، تضم مائة وخمسين مليون عضو ، وقيمة معاملاتها فى كل سنة زهاء ستة آلاف مليون من الجنيهات — أدركنا مدى الأثر البليغ الذى أحدثه هذا النفر القليل من نساجى " روتشيل " فى حياة العالم .

* * *

ان الأمثلة على ما يستطيعه " الفرد الواحد " أكثر من أن تحصى وتستقصى . وتلك الحركات الخطيرة التى ذكرناها انمـا نضرب بها على سبيل المثال لا على وجه الحصر . فكثير من الحركات والهيئات العالميــة الكبرى قامت بفضل رجل واحد ، أهم مميزاته وأولى مسائله الاخلاص — الاخلاص للوطن الذى أنشأه ، وللانسانية التى ينتمى اليها .

وفى وسع كل فرد منا أن يعمل عملا عظيما إذا هو تذرع بهذا الاخلاص . فى وسعه على الأقل أن يصلح القرية التى أنشأته ، أو الحى الذى يقطنه ، أو البيئة الصـغيرة التى يتردد فى جوانبها . ولن يقف فى سبيله — إذا خلصت نيته وصدق جهاده — قلة ماله أو ضعف جاهه . كلا : فما يتطلب الأمر من المصلح الاجتماعى الا أن يرسل الصيحة الأولى فتتردد أصداؤها فى الأنحـاء . وميدان الإصلاح كميدان القتال : يرفع أحد الجنود لواء الجهاد ، فتتدافع اليه جميع الأجناد ، ليقفوا من حوله صفا واحدا .

عبد الحميد عبد الغنى